الشكلانية الروسية

الباحثة: سواعـدية عائـشة
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكـرة

يشكل مشهد النقد في الدراسات الأدبية الحداثية مجالا واسعا وأصبح يمثل ضرورة لاغنى عنها لتنمية وتغذية النص الأدبي بمختلف تلاوينه الدلالية و الجمالية، وفي الحقيقة فإن النص يعد مشروعا خاما للفن و القراءة هي التي تكشف خفايا الجمالية .

و يعد النقد الأدبي أداة منهجية لقراءة و إعادة تفسير جمالية النصوص الأدبية ، إلا انه ونظرا لتنامي نظريات نقدية جديدة كان لزاما على الدراسات الأدبية بين الحين و الآخر مراجعة الطرق و المناهج المتبعة لفتح المجال لمناهج جديدة و إعادة بناء النص و تأطيره وفقا منظورات أخرى مغايرة.

وجاءت هذه المداخلة لتحاول الكشف عن تيار نقدي من التيارات النقدية الجديدة والتي تشترك كلها في محاولتها مقاربة النص إنطلاقا مما أنجزته من مقاربات وتطبيقات متنوعة ألا وهو التيار الشكلاني الروسي والذي سأحاول عرض أهم أقطابه و نظريته و منهجه في الدراسة .

1- لمحة موجزة عن الشكلانية الروسية: يؤرخ لظهورالشكلانية الروسية ما بين1915و1930م، في سياق تاريخي ينبذ الرأسمالية، و لا يعترف إلا بالاشتراكية العلمية، مع السعي الجاد نحو ربط المضمون الأدبي بالواقع الثوري والعملي والمادي، ومحاربة جميع التيارات الشكلية والنزعات البنيوية التي تعنى بالشكل على حساب المضمون.ومن ثم، فقد حوربت الشكلانية الروسية أمدا طويلا، بعد أن تعاظم الدور الاشتراكي واليساري للأدب. وكان اطلاع الأوروبيين عليها سببا رئيسيا لنجاحها، سيما الفرنسيين منهم، سنة 1960م، عبر الترجمة، والصحافة، والاحتكاك الثقافي، والتمثل العملي... فطوروا تصوراتها النظرية

والتطبيقية، وانطلقوا من مبادئها الفكرية، واستخدموا مفاهيمها الإجرائية، خاصة في مجال اللسانيات والسيميوطيقا ونقد الأدب.

ولكن لمعرفة الشكلانية الروسية أكثر والاحاطة بالموضوع نطرح عدة تساؤلات، كيف نشأ التيار الشكلاني في الأدب والفن؟ وما أهم تصوراته النظرية والتطبيقية؟ وما الآثارالتي تركتها هذه الشكلانية في مجال الأدب واللسانيات والسيميوطيقا؟ وما أهم الانتقادات والمزايا الموجهة إلى هذا التيار النقدي الأدبي؟ هذا ما سوف نجيب عنه في موضوعنا هذا.

2- نشأة الشكلانية الروسية:

تعد الشكلانية الروسية الممهد الفعلي للدراسات السيميوطيقية في غرب أوربا، سيما في فرنسا ، وقد نشأت الشكلانية الروسية بسبب تجمعين هما:

1- حلقة موسكو اللسانية التي تكونت سنة 1915م، ومن أهم عناصرها البارزة رومان جاكبسون الذي أثرى اللسانيات بأبحاثه الصوتية والفونولوجية. كما أغنى الشعرية بكثير من القضايا الإيقاعية والصوتية والتركيبية، سيما نظريته المتعلقة بوظائف اللغة، والتوازي، والقيمة المهيمنة، والقيم الخلافية ....

2- حلقة أبوياز بلينينكراد، وكان أعضاؤها من طلبة الجامعة. أما عن خطوط التلاقي بين المدرستين، فتتمثل في الاهتمام باللسانيات، والحماسة للشعر المستقبلي الجديد، كما عند فلاديمير مایاكوفسكي، وباسترناك، وأسيف، ومانديل شتام،...

هذا، ولم تظهر الشكلانية إلا بعد الأزمة التي أصابت النقد والأدب الروسيين، بعد انتشار الإيديولوجية الماركسية، واستفحال الشيوعية، وربط الأدب بإطاره السوسيولوجي في شكل مرآوي انعكاسي؛ مما أساء ذلك إلى الفن والأدب معا.

هذا، ولقد ارتكزت الشكلانية على مبدأين أساسيين هما:

1- إن موضوع الأدب هو الأدبية. أي: التركيز على الخصائص الجوهرية لكل جنس أدبي على حدة.

2- دراسة الشكل قصد فهم المضمون. أي: شكلنة المضمون، ورفض ثنائية الشكل والمضمون المبتذلة.

ولقد قطعت الشكلانية الروسية مراحل عدة في البحث الأدبي واللساني. ففي المرحلة الأولى، كان الاهتمام ينصب على التمييز بين الشعر والنثر. في حين، كانت البحوث، في المرحلة

الثانية، تتعلق بوصف تطور الأجناس الأدبية. ومن ثم، فقد نشرت كثير من الدراسات الشكلانية، وترجمت في مجلات غربية هامة، مثل: مجلة الشعرية(– oétique)، ومجلة التحولِ(Change).

ويرى دافيد كارتر (David Karter) بأن الشكلانية الروسية قد عرفت ثلاث مراحل أساسية . وفي هذا، يقول:" إن ثلاث مراحل متميزة في تطور الشكلانية الروسية، والتي يمكن أن تتميز بثلاث استعارات. تنظر المرحلة الأولى إلى الأدب كنوع من "الآلة" له تقنيات مختلفة، وله أجزاء تعمل. وعدت المرحلة الثانية الأدب على أنه " كائن حي"؛ أما المرحلة الثالثة، فقد رأت أن النصوص الأدبية هي عبارة عن أنظمة ."[1]

2–أ/ رواد الشكلانية الروسية: تينيانوف (Iouri Nikolaïevitch Tynianov)، وإيخنباوم (Boris Eichenbaum)، وشلوفسكي (Victor Borissovitch Chklovski)، وفلاديمير بروب(–ro – Vladimir Iakovlevitch –)، وتوماشفسكي (Tomachevsky)، وجان مكاروفسكي(Mukarovsky)، ورومان جاكبسون (Roman Jakobson)، وميخائيل باختين (Bakhtine)، وأوسيب بريك(Ossi– Brik)، وفينوكرادوف (Vinogadrov)، وكريكوري فينوكور (Grigoryi Vinokour)،...

وقد انصبت اهتمامات هؤلاء على التمييز البويطيقي بين الشعر والنثر. في حين، اهتم موكاروفسكي بالوظيفة الجمالية ووصف اللغة الشعرية. أما اللساني رومان جاكبسون، فقد اهتم بقضايا الشعرية واللسانيات العامة، خصوصا ما يتعلق بالتواصل والصوتيات والفونولوجيا. أما السيميائي فلاديمير بروب، فقد أعطى عناية كبيرة للحكاية الروسية العجيبة، فوضع لها مجموعة من القواعد المورفولوجية القائمة على الوظائف والعوامل .

ومن جهة أخرى، فلقد ركز ميخائيل باختين، في أبحاثه المختلفة، على جمالية الرواية وأسلوبيتها، واهتم، بالخصوص، بالرواية البوليفونية (المتعددة الأصوات)، فأثرى النقد الروائي بكثير من المفاهيم، مثل: فضاء العتبة، والشخصية غير المنجزة، والحوارية، وتعدد الرؤى الإيديولوجية، إلخ...

وعليه، فقد كانت أبحاث الشكلانيين الروس نظرية وتطبيقية في آن واحد، ومن نتائج هذه الأبحاث: ظهور مدرسة تارتو Tartu التي تعتبر من أهم المدارس السيميولوجية الروسية. ومن أعلامها البارزين: يوري لوتمان صاحب (بنية النص الفني)، وأوسبينسكي، وتزتيفان

تودوروف، وليكومتسيف، وأ.م.بينتغريسك. ولقد جمعت أعمال هؤلاء في كتاب جامع تحت اسم (أعمال حول أنظمة العلامات ... تارتو)(1976م).

2-ب/ مرتكزات الشكلانية الروسية: وإذا انتقلنا إلى مرتكزات الشكلانية الروسية لفحص دعائمها النظرية والتطبيقية، فيمكن حصرها في النقط التالية:

1- الاهتمام بخصوصيات الأدب والأنواع الأدبية. أي: البحث عن الأدبية، وما يجعل الأدب أدبا؛

2- التركيز على شكل المضامين الأدبية والفنية، ودراستها في ضوء مقاربة شكلانية؛

3- استقلالية الأدب عن الإفرازات والحيثيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية(دراسة الأدب باعتباره بنية مستقلة عن المرجع)؛

4- التركيز على التحليل المحايث، قصد استكشاف خصائص العمل الأدبي؛

5- التوفيق بين آراء بيرس وسوسير حول العلامة (أعمال ليكومستيف – مثلا-)؛

6- استعمال مصطلح السيميوطيقا، بدل من توظيف مصطلح السيميولوجيا؛

7- الاهتمام بالسيميوطيقا الإبستمولوجية، والتركيز على الأشكال الثقافية؛

8- التشديد على خاصية الاختلاف والانزياح بين الشعر والنثر؛

9- الإيمان باستهلاك الأنظمة وتجددها وتطورها باستمرار من تلقاء ذاتها؛

10- عدم الاكتفاء بالأعمال القيمة والمشهورة في مجال الأدب أثناء التطبيق النصي والنظري، بل توجهت الشكلانية الروسية إلى جميع الأجناس الأدبية، مهما كانت قيمتها الدنيا، مثل: أدب المذكرات، وأدب المراسلات، والحكايات العجيبة... قصد معرفة مدى مساهمتها في إثراء الأعمال العظيمة، كما فعل ميخائيل باختين مع الأجناس الشعبية الدنيا في كتابه(شعرية دوستويفسكي)[2].

2-ج/ مؤلفات الشكلانيين الروس: (كيف صيغ معطف غوغول) لبوريس إيخانباوم، و(شعرية دويستفسكي) و(الماركسية والفلسفة) لميخائيل باختين، و(الشعر ذاته) ليوري تينيانوف، و(الحكايات الروسية العجيبة) لفلاديمير بروب، و(سيمياء الكون) و(بنية النص الفني) ليوري لوتمان، و(نظرية النثر) لشلوفسكي، وهلم جرا...

3- المبادئ النظرية للشكلانية الروسية

تتبني الشكلانية الروسية على مجموعة من المبادئ النظرية التي يمكن حصرها في العناصر التصورية التالية:

– التركيز على أدبية النص (Littérarité) .أي : العناية بما يميز النص الأدبي على باقي النصوص الأخرى، أو ما يسمى بالوظيفة الجمالية أو الشعرية عند رومان جاكبسون. فكل جنس أدبي له وظيفته الخاصة، حيث تمتاز القصة بالوظيفة القصصية، والرواية بالوظيفة الروائية، والمسرح بالتمسرح، وهكذا، مع باقي الأجناس الأدبية الأخرى...

وترتكز الوظيفة الجمالية على إسقاط المحور الاستبدالي على المحور الأفقي.ونعني بالمحور الاستبدالي المعنى أو الترادف أو الدلالة. في حين، يقصد بالمحور التأليفي علاقات المجاورة أو علاقات التركيب النحوي. ويعني هذا كله أن الوظيفة الجمالية تتضمن الدلالة والنحو معا.

– العناية بالشكل: لقد تجاوز الشكلانيون الروس ثنائية الشكل والمضمون، وقد اعتبروا الشكل علامة الدلالة، وأس المعنى.فمن خلال الشكل، يبدو المعنى مبنيا، ويتجلى في آثاره الفنية والجمالية واللغوية والنصية.

– الانفتاح على اللسانيات: أهم ما تمتاز بها الشكلانية الروسية أنها كانت تعنى كثيرا بمكتسبات اللسانيات، خاصة في دراسة الشعر، بتوظيف المستويات الفونولوجية والصوتية والإيقاعية والتنغيمية، ودراسة البنية الصرفية، ورصد مستويات الدلالة والتركيب معا. بالإضافة إلى تطبيقها على السرد، كما فعل فلاديمير بروب في كتابه(مورفولوجيا الخرافة)، حينما درس الخرافة الشعبية العجيبة، في ضوء التركيب السردي القائم على الوظائف والتحولات النحوية[3].

– المقاربة البنيوية: تستند الشكلانية الروسية إلى المقاربة البنيوية اللسانية التي تعنى بدراسة بنيات السرد والشعر والحكاية، وكذلك تحليل بنيات الشخصيات، بطريقة بنيوية محايثة وثابتة ووصفية وسكونية.

– تقعيد الأجناس الأدبية: اهتم الشكلانيون الروس بتقنين الأجناس الأدبية تجنيسا وتنويعا وتصنيفا وتنميطا، وفق المقاييس اللسانية والشكلية، مستبعدين المضامين والرسائل الإيديولوجية.

– الاهتمام بنظرية الأدب: يعد الشكلانيون الروس من أهم العلماء الذين اهتموا بتأسيس نظرية للأدب في ضوء المعطيات اللسانية، والمقاربات الشكلانية، والتصورات البنيوية

والسيميائية. وبهذا، يكونون قد مهدوا للدراسات البنيوية اللسانية والدراسات السيميوطيقية الشكلية.

– إقصاء المرجع الخارجي: لقد أقصى الشكلانيون الروس ما يسمى بالمرجع النفسي والاجتماعي، وتجاوزوا المضامين والمحتويات والخبرات والشعارات الإيديولوجية نحو استجلاء أسرار الشكل بنية ودلالة ووظيفة.

– الدفاع عن الشعر الجديد: كانت الشكلانية الروسية تدافع عن الشعر الجديد أو ما يسمى أيضا بالشعر المستقبلي كما عند ماكايوفسكي، ويمتاز هذا الشعر بطابع رمزي إيحائي، ويتسم بالغموض على مستوى المجاز، بله عن الانزياح، والاهتمام بالشكل، والتنغيم الإيقاعي، والطابع غير العقلي...كما اعتني بشعر (أنا أخماتوفا) الذي كان يطبعه النظم السريع والبعد السيكولوجي.

وعليه، فقد كانت الشكلانية الروسية" مهتمة بتحليل الشكل وبنية النص واستخدامه للغة أكثر من المحتوى أو المضمون. أراد الشكلانيون الروس أن يؤسسوا أساسا علميا لدراسة الأدب.وكانت عقيدة الشكلانيين الروس المبكرة متطرفة: فقد كانوا يؤمنون بأن المشاعر الإنسانية والأفكار التي يتم التعبير عنها في الأعمال الأدبية ثانوية، وقدموا السياق فقط من أجل تطبيق التقنيات الأدبية. وخلافا للنقد الجديد في أمريكا، لم يهتم الشكلانيون بالدلالة الثقافية والأدبية للأدب، ولكنهم كانوا يرغبون في استكشاف كيف تستطيع مختلف التقنيات الأدبية أن تنتج تأثيرات جمالية معينة."[4]

وهكذا، فقد كان الشكلانيون، بصفة عامة، والشكلانيون الروس بصفة خاصة، يرجحون كفة الشكل على المضمون، ويهتمون بالأبنية والأنساق والخطاطات التجريدية، وذلك على حساب المضمون الذهني والعاطفي والإنساني.

4- تأثيرات الشكلانية الروسية

لقد ترك التيار الشكلاني الروسي، والتشيكي كذلك، تأثيرا إيجابيا في ثقافة أوروبا الغربية، ابتداء من سنوات الستين من القرن الماضي، بعد ترجمة أعمال الشكلانيين الروس إلى اللغتين: الإنجليزية والفرنسية. و يعد تزيتيفان تودوروف (T.Todorov) أول من عرف الفرنسيين بالكتابات الشكلانية الروسية، كما يبدو ذلك واضحا في كتابه (نظرية الأدب: نصوص الشكلانيين الروس) (1965م)

وقد ساهمت جوليا كرستيفا (Julia Kristieva)، بدورها، في تعريف الغربيين بكثير من التصورات الشكلانية، خاصة مفهوم التناص، وكانت تستند، في بحوثها النظرية والتطبيقية، إلى التوفيق بين اللسانيات والتحليل الماركسي، قصد إيجاد التجاور بين الداخل والخارج. ويعني هذا أنها أعطت أهمية كبرى للعلامة في علاقتها بالمرجع المادي.

هذا، ولقد استعملت كريستيفا مصطلحات سيميوطيقية للوصول إلى التدليل في النصوص المعللة، فقد استبدلت المعنم أو السيم Séme الموظف من قبل مدرسة باريس السيميوطيقية بمصطلح سيمانالیز Sémanalyse. أي: التحليل المعنمي أو السيمي. كما ركزت كريستيفا على الإنتاج الأدبي بدل الإبداع الأدبي. لذا، لم يكن هدفها الدلالة، بل المدلولية. لذلك، وظفت مصطلحات ذات بعد ماركسي، كالمنتج، والممارسة الدالة، والمنتوج، على عكس المصطلحات الموظفة في الفكر الرأسمالي واللاهوتي، مثل: المبدع والإبداع الفني.

ولا ننسى التأثير الكبير لكتاب (مورفولوجيا الحكاية العجيبة) لفلاديمير بروب على علم السرد الأوروبي؛ وما أثاره من ضجة أدبية، وسجال نقدي لافت للانتباه، خاصة مع كلود ليفي شتروس.

وعلى العموم، فقد كان البنيويون والسميائيون الفرنسيون عالة على الفكر الشكلاني الروسي، يأخذون بخطواتهم المنهجية، ويتمثلون تصوراتهم النظرية والتطبيقية إحالة وتناصا واستيعابا وتطويرا، إلى أن تداخلت النظريات النقدية والأدبية والفنية، وضاعت بصمات الرواد والمتمثلين.

5- مزايا و مآخذ

بعد أن كانت الشكلانية الروسية جريمة غير مقبولة في روسيا الاتحادية في مطلع القرن العشرين، والدليل على ذلك الحملات التي قام بها الإيديولوجيون الاشتراكيون ضد هذه النظرية النقدية، مثل تروتسكي الذي اعتبر النظرية الشكلانية بمثابة اعتراض على الماركسية في روسيا السوفيتية، ولوناتشارسكي الذي وصف الشكلانية، في سنة 1930م، " بأنها تخريب إجرامي ذو طبيعة إيديولوجية."[5]

بيد أن هذه الشكلانية ستطعم بآراء التحليل الاجتماعي الماركسي مع أحد السوسيولوجيين الروس اسمه أرفاتوف، وأيضا مع جان موكاروفسكي، وكذلك مع البلغارية جوليا كريستيفا التي

زاوجت، في تحاليلها النصية، بين الشكلانية والمقاربة السوسيولوجية الماركسية. وبهذا، فقد كانت سباقة إلى تأسيس ما يسمى بالسيميوطيقا المادية.

إلا أن هذه الشكلانية الروسية التي أفلت في سنوات الثلاثين من القرن الماضي، قد أصبحت مدرسة مرحبة بها في أوروبا الغربية منذ سنوات الستين من القرن الماضي، ونالت ثناء كبيرا من قبل الباحثين والدارسين. وفي هذا يقول رومان جاكسون:" وعلى الرغم من المخلفات المحزنة لهذه المواقف الكريهة، فإننا نلاحظ اليوم، ميلا للتذكير بالاكتشافات الحقيقية للسانيات وعلم الجمال السوفياتيين، في العشرينيات، لإعادة تأويلها وتنميتها في هيئة جديدة خالقة، وذلك عن طريق مقابلتها بالتيارات الراهنة للفكر اللساني والسيميائي، وإدماجها في النظام المفهومي المستعمل اليوم. إن هذا الميل النافع ليتجلى بحيوية في المناقشات، وفي الأعمال الجذابة لباحثين شباب، في كل من موسكو، ولينينكراد، وتارتو."[6]

ومن الانتقادات الموجهة للشكلانية أيضا إهمالها لمشاكل علم الجمال، وإغفالها لمبادئ علم النفس وعلم الاجتماع، وتحويل الدراسة الأدبية إلى تطبيقات شكلية وتقنية وعلمية لا فائدة منها، مادامت هذه الدراسات تهمل الإنسان، والتاريخ، والمجتمع، والنفس الإنسانية.أي: تهمل الذات المنتجة والذات المتلقية، وتقصي الواقع الذي يجمعهما على مستوى الإرسال والمرجع.

الخاتمة :

وفي الأخير يمكن القول أن الشكلانيون الروس من السباقين إلى تطبيق البنيوية اللسانية والسيميوطيقا في دراسة النصوص الأدبية، من خلال الاعتماد على مبدأي الشكل والاستعانة باللسانيات .ومن ثم، فقد برز مجموعة من الدارسين، مثل: فلاديمير بورب ، ورومان جاكبسون ، وميخائيل باختين ، ويوري لوتمان، وجان موكاروفسكي، أوسيب بريك ، فينوغرادوف، تينيانوف، طوماشفسكي، وفيكتور شلوفسكي، و بوريس إيخانباوم.

وعلى الرغم من سلبيات هذه المدرسة التي كانت تقصي الجوانب المرجعية والمضمونية، فإنها أعادت الاعتبار للشكل البنيوي، بعد أن استفحلت الدراسات الاجتماعية ذات الطابع الماركسي، والتي هيمنت على النقد الأدبي في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الهوامش:

[1]– دافيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: د.باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سورية، الطبعة الأولى سنة 2010م، ص:30.

[2]– ميخائيل باختين: شعرية دويستفسكي، ترجمة: الدكتور جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م.

[3]– فلاديمير بروب: مورفولوجية الخرافة، ترجمة: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م.

[4]– دافيد كارتر: النظرية الأدبية، ص:29.

[5]– الشكلانيون الروس: نظرية المنهج الشكلي ،ترجمة: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، الطبعة الأولى سنة 1983م ص:9.

[6]– الشكلانيون الروس: نفسه، ص:29.